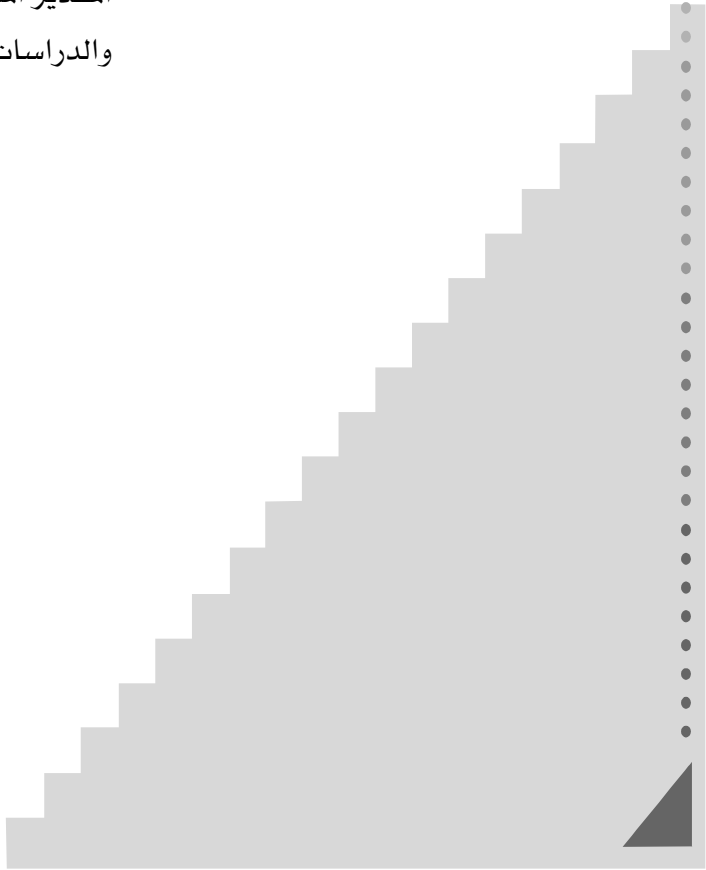


مواد تعليمية جديدة بحجارة قديمة

رنا الحكيم بكداش

المدير المساعد لمركز الأبحاث

والدراسات العربية.



أستهلّ مداخلتى هذه بدعوتكم إلى تخيل دار كبيرة مبنية على الطراز القديم. فباحة الدار واسعة فسيحة، في وسطها نافورة تكركر فيها المياه وتوزّع البرودة في أيام الصيف الحارة فتطفئ ظمأ الورد الجوري وعرائش الياسمين وشقوف الفلّ. وفي الداخل غرفة أساسية تنزّين بصور العائلة؛ أطر فضية عديدة تحتزن تاريخاً طويلاً لعائلة عاصر أفرادها أحداثاً شتى. تطالعنا الصورة الأولى للجد الأكبر وتفضح ألوانها الباهتة عمرها السحيق. يقف الجد الأكبر بوضعية ثابتة يعتمر طربوشاً ويمسك بعضاً ويبدو وكأنه ينظر بعين الرضا إلى الصورة الثانية بجانبه وفيها رجلٌ يجلس مبتسماً وراء مكتب عصري. وتُفصح الصورة هذه عن زمانها فالياقة العريضة وتسريحة الشعر والألوان في المكتب خير دليل على فترة السبعينيات وعلى مقربة من الصورة هذه، يتكئ إطار فضيٌ منقوش يؤطر صورة شاب ضاحك يقف أمام سيارة صغيرة عصرية ويزيد لمعان الإطار الفضي الجديد من تألق الألوان الواضحة.

تجتمع الصور كلها على رفٍّ واحد وتمثل كلُّ واحدة منها حقبة زمنية معيّنة. ولكلِّ صورة خصوصياتها من أزياء وألوان إلا أن التمييز لا يعني أبداً الاختلاف الجذري بل أن قاسماً مشتركاً يجمع بين الأشخاص وهو انتسابهم إلى أصلٍ واحدٍ وعائلة واحدة.

وينطبق هذا المشهد الذي دعوتكم الى تخيله على وضع مركز الأبحاث والدراسات العربية في جامعة القديس يوسف، فهو تأسس عام ١٩٤٥ وأصبح منذ ذلك التاريخ يعتلُّ همّ تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

وقد حاول من خلال بحثه الأول أن يؤمن ديمومة التعليم من خلال طرائق حديثة شكّلت ثمرات أعماله فروع عائلته.

فمولوده البكر واسمه طريقة الجمل^١ ابصر النور في الأربعينيات وكانت من بواكير الطرائق التي دعت إلى تعليم العربية لغير الناطقين بها. إلا أنها وعلى غرار ما كان سائداً في عصرها اعتمدت على الترجمة كوسيلة لتعليم اللغة وركزت على قواعد اللغة كإمكانية تواصل. خلافاً لما حصل لاحقاً مع شقيقاتها أي الطرائق التي وُضعت لاحقاً.

وتواصلت ثمرات مركز الأبحاث والدراسات العربية فكان المولود الثاني وعُرف بطريقة

"من الخليج إلى المحيط" ^٢ بجزئها الأول والثاني. أبصرت النور في بداية السبعينيات وانطلقت من حالة المتعلم الطفل الذي يلتقط لغة جديدة وظلّت تحظى باهتمام المتعلمين لمدة طويلة تزيد عن ٣٥ عاماً وتعود أسباب سرعة انتشارها واستقطابها الأنظار إلى عوامل عدة شكّلت في زمانها ثورة في التكنولوجيا وتطوراً في وسائل التعليم ^٣.

- فقد انبثقت هذه المواد التربوية من منهجية نادت بضرورة الانطلاق من الإجمالية أو العام للوصول إلى التركيبية أو الجزء في عملية التعليم. واعتمدت هذه المنهجية على مثال الطفل الذي يتعلم لغته الأم فإنه يتعلمها بطريقة إجمالية من غير أن يعي وظائفها ثم ينتقل إلى التركيبية أو التجزيئية في مرحلة لاحقة.

- وساهمت الأشرطة المسجّلة والأفلام المصوّرة في تسهيل عملية التعليم وصارت الحصص تعتمد على التوزيع في المواد فلا ينحصر اهتمام المتعلم بالكتاب وحده بل يتوسع ليشمل الصورة تارةً والشريط المسجل تارةً أخرى. وأصبح التعليم عملية متكاملة أقرب ما تكون إلى الحالة الطبيعية لأنها تتطلّب التفاعل مع الدرس بالحواس كلّها وبالتحديد بواسطة السمع والبصر.

- والتجديد في الوسائل رافقه تجديد في مضمون الدروس التي انبثقت من حالات تواصلية مستلّة من الواقع المعيش. فشخصيات عائلة شامي من زينة وخليل

ومروان ونبيل... تعيش حالات متفاوتة من حزن وفرح وحب وانفعال...

وينطبق عليها ما ينطبق على أي كائن يعيش في ذلك الزمان.

وطبيعي أن يتعرّف المتعلم الحالات النفسية من خلال الشخصيات فتدرّج الدروس من علاقات التعارف والصدّاقة والحب إلى حالات أخرى من سرقة سيارة فيبرام عقود (...). والتدرّج في الدروس يتمُّ بحسب حاجات المتعلم. فالدروس الأولى تتطّلق على عدد محدّد من التراكيب والمفردات يكرّرها الطالب ويفهمها ويرسخها قبل أن ينتقل إلى الدروس الأخرى مع ما تحويه من مفردات وتراكيب جديدة ^٤.
وكلّ مواد جديدة استأثرت مواد "من الخليج إلى المحيط" باهتمام المتعلمين وشكّلت منعطفاً في الطرائق التربوية فعرفت انتشاراً وطنياً وإقليمياً ودولياً لا سيّما أنها غطّت حوالي ٤٠٠ ساعة فأمنت بذلك دورة كاملة من التعليم.

إلا أن لكلّ زمان طرائقه ؛ لذا بدأ نجم مواد " من الخليج إلى المحيط" يأفل لمصلحة المولود الجديد الذي ابصر النور باسم " توابل وحرير"^٥ .

والأخ الأصغر أي " توابل وحرير" لم ينطلق بعمله بسبب ضعف الأخ الأكبر بل جاء ليؤمن استمرارية عمل أخيه في تعليم اللغة العربية^٦ . فأضفى على الوسائل المتبعة طابعه الخاص وأبرزه التطور التكنولوجي الذي أصبح عنصراً أساسياً في هذا العصر.

لم تهدم إذن مواد "توابل وحرير" ما كانت بنته مواد "من الخليج إلى المحيط" بل حافظت عليه واعتبرته مداميك رئيسة للمواد الجديدة فقد حاولت أن تبني بالحجارة القديمة بنياناً حديثاً فارتكزت على أسس البناء القديم فعلى ماذا أقيمت وماذا عدلت ؟

- بقيت المنهجية التركيبية السمعية البصرية هي الحجر الأساس في البنيان الجديد ؛ فالمتعلم يدخل إلى اللغة الجديدة ويتفاعل معها ويفهمها من خلال حالات تواصلية تعتمد على الصوت والصورة.

وشكلت هذه الحالات بدورها أساساً ثابتاً آخر لأنها تنطلق أولاً من حاجات المتعلم وتقدم له ما يستطيع استيعابه من حاجات المتعلم وتقدم له ما يستطيع استيعابه من مفردات وتراكيب بحسب مستواه.

- و حافظت مواد "توابل وحرير" على الجسور في البناء القديم أي التدرج في العملية التعليمية ونقلتها إلى المواد الجديدة. فظلّ تعلّم الخط والقواعد والتراكيب... يتبع تدرجاً تصاعدياً يزداد صعوبة كلما ارتقى المتعلم بالمستوى.

- وأعادت المواد الجديدة بناء القنطرة وهي مواد "تذوق"^٧ . فهذه النصوص الفنية المرتبطة أصلاً بالحالة التواصلية غالباً ما تترسّخ في ذهن المتعلم وتدخل قلبه عندما تكون ملحنة ومُغناة. والقنطرة المغناج متعة للنظر وكذلك مواد "تذوق" التي تضيي جواً من الفرح على عملية التعليم.

- وأبقت مواد "توابل وحرير" على الدعائم الأساسية القديمة وهي مقارنة الخط. والمقارنة بقيت على حالها في التدرج في رسم الأشكال على مساحة واسعة

وبمساعدة الموسيقى ثم الانتقال إلى الورقة مع رصد للوحدات المتواترة وصولاً إلى كتابة الحرف والعودة أخيراً إلى تأليف جملة أو تقليد تركيب تعلمه الطالب وغني عن التذكير أن المتعلم يتدرّج بهذه الحالات مع اكتسابه عادة جديدة وهي انتقاله إلى الكتابة من اليمين إلى اليسار.

صحيح أن البناء الجديد استغل المواد القديمة التي عُرفت بفعاليتها ومثانتها ؛ إلا أنه أدخل على العمران عناصر جديدة أعطته طابعاً عصرياً فكان خير مثال لبناء يجمع بين عراقة القديم وأصالته ورفاهية الحاضر.

فقد جدّد البنّاءون في واجهة البنيان وأصبح شكله يتماشى أكثر مع متطلبات العصر. فالتجديد إذن طال الحالات التواصلية في مواد "توابل وحرير". فصارت كل وحدة (أي كل ٢١ ساعة تعليم) مستقلة عن الأخرى في مضامينها وصارت الحالات التواصلية آنية.

ولم تعد عائلة شامي هي محور الدروس كما في مواد "من الخليج إلى المحيط" ولم تعد الشخصيات من زينة وخلييل ومروان... ترافق المتعلم على مدى ٤٠٠ ساعة بل تتوّع المضمون ما بين الحبيب الوحيد (يا ليل يا عين) والمغنية المتباهية (المغنية وحيد) وشراء قماش لفستان العرس (جهاز العروس)... كلُّ هذا التنوّع ساهم في إبعاد عنصر الملل عن المتعلّم كما ساهم في تنويع مكتسباته بالمفردات والتراكيب من خلال تجدد الحالات التواصلية.

وساهم القيّمون الجدد في تقطيع مساحات البناء المجدّد واستثمارها بشكل تام ومفيد، وقد انسحب هذا الوضع على مواد "توابل وحرير" التي أعادت النظر بتمارين "منهجيات التعبير" فحاولت أن تغطي كلَّ استثماراتها من تصميم وتلخيص وتدوين رؤوس أقلام إلى كتابة التقرير فالمحضر... من التمارين التي استثمرت أصلاً في مواد "من الخليج إلى المحيط" ولكن على نطاق أضيق.

وترافقت هذه العناصر الجديدة مع عنصر آخر وهو ضغط توقيت الحصص. فقد انتقل عدد الساعات من مئة ساعة لكلِّ مستوى في مواد "من الخليج إلى المحيط" إلى ٨٤ ساعة في مواد "توابل وحرير" وساهم هذا التوزيع الجديد في تسريع وتيرة العمل لدى المنشط والمتعلّم على حد سواء فلا ملل في الحصص ولا هدر للوقت.

وقد جاء هذا التحديث تطبيقاً لنظام الوحدات الأوروبي الجديد (ECTS) [^] ورغبةً في توزيع الحصص توزيعاً متكافئاً.

واللمسة الأخيرة في هذا البناء الجديد كانت في تحديث أدوات الزينة.

فالأدوات من مثل عاكس الصورة القديم وآلة التسجيل لم تعد تفي بالمطلوب في عصر دخلت عليه الرتابة وصارت الوسائل التكنولوجية الحديثة من مثل الرتابة تُستغلّ لألف غرض وغرض من تسجيل الأفلام و ثم عرضها إلى ذاكرة حافظة للمعلومات إلى آلة طباعة وتصوير حتى ذهب البعض إلى القول إن الرتابة حلت محل صندوق الأعاجيب لما لها من تنوع في المهام!

غير أن التعاطي مع الوسائل التكنولوجية لم يكن من منطلق "الانبهار" ولم يحتل الأولوية بل إن القيمين على مواد "توابل وحرير" تعاطوا مع الوسائل الحديثة من منطلق الحاجة إليها من دون أن يهملوا دور القلم والورقة في عملية التعليم.

وبعد ، قد يخيل للبعض أن المواد الجديدة "توابل وحرير" حاولت أن تُقصي شقيقتها " من الخليج إلى المحيط" كي تتربع لوحدها على عرش المواد التربوية وقد ظنّ البعض أن حرباً وقعت بين الحديث والقديم غير أن الواقع مغايرٌ تماماً لهذا التفكير فالانتقال من القديم إلى الحديث تمّ بانسجام وسلاسة. فمن المواد القديمة طوّرت "توابل وحرير" بعض الجوانب ووسعت الآفاق وحاولت بذلك أن تكون مواداً توليفية تجمع بين الخبرة والحداثة.

الحواشي

١ - طريقة " الجمل" وضعها الأب دالفرني عام ١٩٤٩

André D'Alverny, Cours de langue arabe – Dar el Mashrek- Edituers –
Beyrouth-1949

٢ - مواد " من الخليج إلى المحيط" طريقة لتعليم العربية لغير الناطقين بها ، صدرت عن منشورات ديديه -
مكتبة أ - هاتيه باريس - ١٩٧٩ - ١٩٨٠ في جزءين وأربعة كتب : اثنان للطالب واثنان للمعلم وتغطّي
أربعمئة ساعة تعليم. تألّف فريق العمل من :

- مديري السلسلة : بول ريفانك - بيتار غوبيرينا

- المدير التربوي: هنري ساغو

- المؤلفون : جرجورة حردان، جورج صفا ، جوزف لويزي، رولان مينييه ، هنري عويس، هيثم

الأمين، يوسف ديشي، يوسف عون.

٣ - يُراجع بصدد التركيبية الإجمالية كتاب Retrospection : Petar Guberina ص. ٢٢٣
كذلك بالنسبة إلى الطريقة السمعية البصرية التركيبية الإجمالية AVSG ١٤١ - ١٨٠.

٤ - وضع كلٌّ من بريل ولاندوا لائحة بأكثر المفردات تواتراً وبالتالي أكثر المفردات استعمالاً.

٥ - مواد "توابل وحرير" هي مواد تربوية يعمل على وضعها فريق عمل من معلّمي مركز الأبحاث والدراسات
العربية مؤلف من :

ألين زغبى، أمل بعلبكي، جولي مراد، ديانا يعقوب، رنا الحكيم بكداش، سهى طنوس حاج ، كلود
وهبة، ليليان كرم، ميراى ملاح، مي الحداد ، نايلة نشواتي، نبيل الحداد وهنري عويس.

المنسّق: رنا الحكيم بكداش المستشارون التربويون : جرجورة حردان ، مارك أرغو، هنري عويس

الرسم: روبير كفوري الموسيقى : انطوان باسيل ، غي مانوكيان

الخط : فادي صباغة ، مروان كنج، هاني بعيون

تمّ تصوير أفلام الفيديو في لبنان (الذوق وبيروت)، سوريا (حلب) واسبانيا (طليطلة).

ويتبنى هذا المشروع مجلس البحوث في جامعة القديس يوسف.

٦ - يراجع بهذا الصدد: " وما الحب إلا للحبيب الأول" رنا الحكيم بكداش وهنري عويس.

" يراجع بهذا الصدد الكيمياء عدد ٩ - حوليات معهد اللغات والترجمة ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣ .

7- H. AWAISS : Côté Cœur

Approche de l'expression orale en Didactique des langues Colloque
SGAV – Nov. 2005 Tunis (sous pression).

8- European Credit Transferable System